شيخ المفسرين

الإمام محمد بن جرير الطبري

تأليف الدكتور

عبد القادر محمد الحسين

جامعة دمشق - كلية الشريعة

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

دمشق - سورية

شَيْخُ المُفَسِّرِين

الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ

الموضـوع : دراسات قرآنية
العنـوان : شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري
تأليـف : د. عبد القادر محمد الحسين

عدد الصفحـات : ٦٣
قياس الصفحـات : ١٤ × ٢٠
الرقم التسلسلي : ٧١
التنفيذ الطباعي : مطبعة الغوثاني

الوكـلاء

سـورية - حـلـب	دار نـور الهـدايـة	هاتف :	٠٠٩٦٣٢١٣٢٢٣٧٣٠٠
الأردن - عمـان	دار الفـاروق	هاتف :	٠٠٩٦٢ ٦٤٦٤٠٠٦٤
لبنـان - بيـروت	دار البشائر الإسلامية	هاتف :	٠٠٩٦١١٧٠٢٨٥٧
الإمارات - دبـي	مكتبـة البيـروني	هاتف :	٠٠٩٧١٥٠٦٥١٧٠٩٧
السعودية - الرياض	أيمـن عـوض	هاتف :	٠٠٩٦٦٥٦٩٨٠١٩٩٤
مصـر - القاهرة	دار السـلام	هاتف :	٠٠٢٠٢ ٢٧٤١٥٧٨
الجزائر - العاصمة	دار الـوعـي	هاتف :	٠٠٢١٣٥٤٥١٠١٤
الكويت - العاصمة	بيـت المقـدس	هاتف :	٠٠٩٦٥ ٢٦١٠٢٧٠

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الغوثاني

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

دمشق : حلبوني - ص ب: ٢٥٢٣٧ - فاكس: ٢٤٥٤٠١٣
هاتف: ٢٤٥٣٦٣٨ (٩٦٣١١+) - جوال: ٠٩٤٤ ٤٥٣٦٣٨
البريد الالكتروني: algawthani@scs-net.org
algawthani@hotmail.com

شيخ المفسرين

الإمام محمد بن جرير الطبري

تأليف الدكتور

عبد القادر محمد الحسين

جامعة دمشق - كلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما وألحقنا بعبادك الصالحين..

مرّ تفسير القرآن العظيم بمراحل عديدة في تاريخه الطويل كان في العصر الأول سجية قائمة في نفوس العلماء وعلى رأسهم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ حيث تلقوا العلم حالا من رسول الله ﷺ قبل أن يتلقوه مقالا، وهكذا أدى الصحابة رضوان الله عليهم إلى تلاميذهم من التابعين لهم بإحسان، فكان العالم يعطي تلامذته ما عنده عن طريق التلقي، وهو الأصل في العلوم الإسلامية؛ فالله تعالى وصف العلم بأنه في الصدور قبل أن يكون في السطور ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ولكن هذا النوع من العلم عرضة للزوال بموت أهله؛ فكان على أهل العلم أن يحولوا تلك السجية القائمة بالنفوس إلى معلومات مدونة يمكن للأجيال أن تتداولها، ولكن هذا لا يغني بحال عن الشيخ إنما التدوين وسيلة مساعدة على العلم والحفظ والمراجعة.

والحق أن تدوين التفسير سبق الطبري رحمه الله فهناك مقاتل بن سليمان ثم محمد بن سلّام وغيرهم ولكن التفسير في عصر الطبري قد نضج نسبيا شأنه شأن معظم العلوم الإسلامية، كذلك استقل التفسير عن علم الحديث؛ إذ كان التفسير والحديث في العصر الأول توأمين، وفي عصر الطبري أو قبيله بقليل أصبح هناك تمايز أكثر بين العلمين، وفي ذلك العصر انتشر التدوين انتشارا واسعا، وتنقحت العلوم ودونت أصولها وفي هذا العصر أيضا اكتمل تدوين السنة النبوية أو كاد يكتمل، وفي هذا العصر دونت علوم العربية من نحو وصرف وغريب اللغة ومن شعر ونثر وأدب وبلاغة، وفيه أيضا ظهر أصول الفقه الإسلامي وكذا دون الفقه، ونضجت المذاهب الفقهية الإسلامية واكتملت

أصـولها واتـضحت معالمهـا..إذن فهـذا العـصر يعـد بحـق العصر الذهبي للعلوم الإسلامية..

والطبري رحمه الله يعد حلقة متميـزة فـي تفـسير القـرآن العظيم فجميع المفسرين الذين جاؤوا بعده اعتمـدوا عليـه؛ لذلك رأينا أن نعرف إخواننا طلاب العلم بهذا العالم العَلَم وأن نبرز حياته العلمية ومعالمها حتى يستفيد منها الجميع.

وقد ركزت على حياة هذا العلم القدوة وعلـى المـواطن الناصـعة فيهـا ولاسـيما الجوانـب الـسلوكية والتربويـة دون إهمال للقضايا العلمية التي تفيد الباحـث المتخصص، كمـا عمدت إلى تبسيط اللغة الواردة دون إخلال بمعانيها.

والله أرجو العصمة عن الزلـل وقبـول العمـل إنـه سـميع قريب مجيب.

د.عبد القادر محمد الحسين

مدينة الميادين

ظهيرة الثلاثاء، ٢٢جمادى الآخرة، ١٤٢٧للهجرة.

الموافق ١٨تموز ٢٠٠٦م

التعريف بالإمام الطبري رحمه الله

هو الإمام العَلَم المجتهد الحبر البحر عالم عصره شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري الآملي، وقيل يزيد بن كثير بن غالب الطبري.

❖ وصفه

كان الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله أسمر اللون، واسع العينين، مليح الوجه طويل القامة، نحيف الجسم، فصيح اللسان، وكان من أفراد الدهر علماً وذكاء، قل أن ترى العيون مثله.

كما كان جريئاً على الحق، ولاسيما في عرض المسائل العلمية وما أداه إليه اجتهاده؛ مما جرّ عليه بعض المحن وخاصة في أواخر حياته، ومع هذا ما كان يحابي أحداً في العلم ولا تأخذه في الله لومة لائم، مع عظيم ما يلحقه من الأذى، من جاهل وحاسد وملحد، فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها، وكان

رحمه الله ذا زاهد في هذه الدنيا وقناعة بما كان يرد عليه من حصة يسيرة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان، وكان مقبلا على الآخرة يكتفي من الدنيا بقوت، لم تصرفه زينة الدنيا وزخارفها عن الآخرة ورضا ربه.

كما كان رحمه الله ذا همة علية لا تعرف الكلل ولا الملل نذر نفسه لخدمة علوم الإسلام من تفسير وحديث وفقه وسير وتاريخ وسلوك، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

❖ أخلاقه

كان الإمام الطبري رحمه الله حسن الخلق كريم النفس سخيا عفيفا ذا حياء، يؤثر الفقر بعزة النفس على الغنى بذل، متعاليا عن النقائص وسفاسف الأمور متعلقا بمعاليها، وله بعض الأشعار التي تدل على نبل أخلاقه وكرم نفسه ومنها:

إذا أعسرتُ لم يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

ومن شعره أيضا:

خلقان لا أرضى طريقهما بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر

قال رحمه الله: كتب إلي أحمد بن عيسى العلوي من البلد:

ألا إن إخوان الثقات قليل
وهل لي إلى ذاك القليل سبيل
سل الناس تعرف غثهم من
سمينهم فكل عليه شاهد ودليل

قال أبو جعفر فأجبته:

يسيء أميري الظن في جهد جاهد
فهل لي بحسن الظن منه سبيل
تأمل أميري ما ظننت وقلته
فإن جميل الظن منك جميل

❖ مولده ونشأته:

ولد الإمام الطبري رحمه الله سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة النبوية، بمدينة آمُل بضم الميم، وهي أكبر مدينة

بإقليم طبرستان في السهل ؛ لأن طبرستان سهل وجبل ، وهي من شرق الدولة الإسلامية في بلاد العجم ، وبآمل تعمل السجادات الطبرية والبسط الحسان ، ومعروفة تلك الأقاليم إلى يومنا هذا بصنعة السجاد ، وهو من أفخر أنواع السجاد العجمي ، وقد خرج منها كثير من العلماء لكنهم قل ما ينسبون إلى غير طبرستان فيقال لهم الطبري .

إذن فقد نشأ رحمه الله تعالى في بلاد العجم من شرق الدولة الإسلامية ، في عصر من أهم عصور الاستقرار في الدولة الإسلامية ، ومن سماحة الإسلام وعالميته ونبل أخلاقه أنه لا يفرق بين عربي وعجمي ؛ بل قدّم أهلُ الإسلام أبناءَ الأمم التي فتحوا بلادها ، وعلموهم علوم الشريعة ، فصارت لهم إمامة المسلمين ، ولم يدُر في خلَد واحد من المسلمين الفاتحين إلا أن أولئك الناس أخوة أشقاء لنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، علمناهم العلم ثم صاروا أشياخا لنا نقبل أيديهم ، وننشر علومهم ، وإذا أردنا أن نعرف مقدار هذه المكرمة النبيلة للإسلام وأهله فما علينا إلا المقارنة بينه وبين الأمم الأخرى ، ولنضرب على

ذلك مثالا واحدا يبين لنا الفرق الشاسع بين حضارة المسلمين القائمة على العالمية وتوحيد الأجناس لعبادة الله رب العالمين وبين غيرها، ذلك المثل هو الفاتيكان؛ حيث لم يل منصب البابوية العظمى في تاريخ الفاتيكان شخص واحد من أفريقيا التي استُعمرت أراضيها ونهبت ثرواتها ونُصِّر أهلها بالقوة، بينما معظم علماء الإسلام وأئمته كانوا من أبناء المناطق المفتوحة انطلاقا من الحسن البصري والإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنهما ومرورا بالبخاري والطبري ثم الغزالي وغيرهم الكثير... ممن قدّمهم العلم الذي يرفع الناس لا العرق ولا الانتماء، فالعلم يرفع الناس كما قال ربنا ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] أدرك الناس جميعا في ظل الدولة الإسلامية أن العلم مصحوبا بتقوى الله تعالى هو السبيل الوحيد للرفعة والتقدم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ لذلك أقبلوا عليه، وفي ظل ذلك الجو الكريم من التسامح الرفيع نشأ إمامنا الطبري رحمه الله.

نشأ الطبري في آمل وترعرع فيها، وحفظ القرآن الكريم شأن معظم سلفنا الصالح حيث يحفظون القرآن منذ الصبا، ومن حفظ القرآن في الصبا حفظه القرآن في الكبر.

❖ الرحلة في طلب العلم.

ندب القرآن العظيم الناس إلى الرحلة في طلب العلم ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] **وأكد على ذلك رسول الله** ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة).[١]

وقد اهتم أهل العلم من أيام الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الرحلة في طلب العلم، فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه ورد عنه أنه قال: بلغني عن رجل حديث سمعه عن رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرا ثم شددت رحلي فسرت إليه شهرا

---

(١) ـ أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، ج٤/ص٢٠٧٤.

حتى قدمت الشام فإذا عبد الله ابن أنيس ، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب ، فقال: ابن عبد الله ؟! قلت: نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه..[1].

وعن قيس بن كثير قال قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء وهو بدمشق فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا ، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا ، قال: ما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم ، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا

(١) ـ مجمع الزوائد ، ج١/ص ١٣٣.

العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.[1]

ومنذ ذلك الحين اهتم علماء الإسلام بهذه الرحلة المباركة، فسافر معظمهم إلى أقاليم شتى طلبا للعلم وتقربا إلى الله تعالى، والعالم الذي لا يرحل في طلب العلم قلما يوثق بعلمه.

وهكذا رحل إمامنا الجليل رحمه الله متحملا لعناء الأسفار يجوب الفيافي والقفار، ابتغاء طلب العلم لوجه الله تعالى من آمل، لما سمح له أبوه في أسفاره، وكان طول حياته يمده بالشيء بعد الشيء إلى البلدان فيقتات به، وهذه قربة من أعظم القربات إلى الله تعالى نلفت إليها أنظار الآباء؛ فالذي ينفق على ولده النجيب ويمده في طلب العلم يكون شريكا له في كل ثواب يحصله.

وانطلاقا من هذا ابتدأ الإمام الطبري رحلته في طلب العلم بعد أن أتم عشرين سنة، حيث تلقى العلوم الأُوَل والأساسية في بلاده، ثم انطلق يتم تحصيله العلمي في حواضر الإسلام، ومن أهم محطاته العلمية بيروت حيث

---

(٢) ـ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٥/ص١٩٦.

قرأ القرآن فيها على العباس بن الوليد، كما رحل إلى عدد من الأقاليم في طلب الحديث وسائر علوم الشريعة كبلاد الشام ومصر، وأكثر الترحال ولقي نبلاء الرجال، إلى أن ألقى عصا الترحال في عاصمة الدولة الإسلامية وقبلة العلم والعلماء آنذاك بغداد.

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا
وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاكتِسابُ مَعيشَةٍ
وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ
وَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَمِحنَةٌ
وَقَطعُ الفَيافي وَاكتِسابُ الشَدائِدِ
فَمَوتُ الفَتى خَيرٌ لَهُ مِن حَياتِهِ
بِدارِ هَوانٍ بَينَ واشٍ وَحاسِدِ

❖ **شيوخه**

إن أهم ركن في تعلم العلوم الإسلامية هو التلقي عن المشايخ، ولا يجوز الاكتفاء بالكتب فمن كان علمه من

كتابه فخطؤه أكثر من صوابه، وكما قال بعض أهل العلم وقيل للشافعي رضي الله عنه:

أَخـي لَـن تَنالَ العِلمَ إِلّا بِـسِتَّةٍ
سَـأُنبيكَ عَـن تَفـصيلِها بِبَيـانِ
ذَكـاءٌ وَحِـرصٌ وَاِجتِهـادٌ وَبُلغَـةٌ
وَصُـحبَةُ أُسـتاذٍ وَطـولُ زَمـانِ

وانطلاقا من هذا أخذ الإمام الطبري رحمه الله العلم عن كثير من العلماء، فقرأ القرآن على سليمان بن عبد الرحمن الطلحي صاحب خلاد القارئ المشهور، وسمع قراءة نافع من يونس بن عبد الأعلى، وسمع الحديث من الشيوخ الفضلاء كمحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب وإسحاق بن أبي إسرائيل وإسماعيل بن موسى الفزاري وأحمد بن منيع ومحمد بن حميد الرازي وأبي كريب وهناد وخلق كثير غيرهم، وقرأ الفقه على داود وأخذ فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر وعن الحسن بن محمد الزعفراني ببغداد وأخذ فقه مالك عن يونس بن عبد الأعلى وبني عبد الحكم محمد وعبد الرحمن وسعد وابن أخي

وهب، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالري، كما أخذ عن كثير غير هؤلاء الأعلام لا نريد أن نطول بذكرهم هنا.

❖ تلاميذه

كذلك أخذ عنه العلم كثير من العلماء، من القراء والمحدثين والفقهاء، فممن أخذ عنه العلم مخلد الباقرحي وأبو القاسم الطبراني المحدث الكبير، والقاضي أبو محمد ابن زبر وأحمد بن القاسم الخشاب وأبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان وأبو جعفر أحمد بن علي الكاتب، وعبد الغفار بن عبيد الله الحضيني وأبو المفضل محمد بن عبد الله الشيباني والمعلى بن سعيد، كما أخذ عنه ابن مجاهد الإمام القارئ المشهور، ومحمد بن أحمد الداجوني وأبو طاهر بن أبي هاشم، وتفقه عليه خلق كثير، وحدث عنه أبو شعيب الحراني مع تقدمه، وأحمد بن كامل القاضي، وأبو عمرو بن حمدان وكثير غيرهم.

❖ البيئة العلمية التي عاش فيها:

إن البيئة التي يعيشها الإنسان من أهم العوامل المؤثرة في سلوكه وفي تكوين شخصيته العلمية، فأين عاش

الطبري؟ وما هي البيئة التي احتضنته؟ وما مدى تأثير ذلك في شخصيته العلمية؟

ولد الإمام الطبري ونشأ وترعرع في بلاد أمدت الأمة الإسلامية بكثير من الأئمة الأعلام ففي شرق الدولة الإسلامية آمن الناس بالله وصدقوا في إيمانهم لم يعرفوا طريقا أقرب إلى الله تعالى من التمكن في علوم الدين ابتغاء مرضاة رب العالمين ﷻ وتنقل الطبري رحمه الله في أقاليم عديدة من دولة الإسلام، يلتقي أهل العلم وينهل من معينهم، ويناظرهم ويعطيهم ما حصّل من الأقاليم الأخرى وهكذا تتلاقح العلوم فتثمر أفضل الثمار.

إلى أن استقر في بغداد، وألقى فيها عصا الترحال:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قرّ عينا بالإياب المسافر

بغداد، وما أدراك ما بغداد؟!

حاضرة الدولة الإسلامية، حيث يجتمع العلماء من كل حدب وصوب بشتى مذاهبهم، ويقصدها طلاب العلم من

كل أصقاع الأرض، ينهلون من صفاء علومها، ويتلقون مع العلم العمل.

في بغداد خصوصا وفي العراق عموما نضجت العلوم الإسلامية، فالشعر كان يأوي إلى بغداد حيث الخلفاء والأمراء والوزراء، وفي العراق نضج النحو العربي بمدارسه الثلاثة مدرسة البصريين ومدرسة الكوفيين ثم مدرسة البغداديين، وفيها القراء فما بين بصرتها وكوفتها عاش أبو عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود والأخوان حمزة والكسائي وهؤلاء جميعا من أئمة القراء فهم من السبعة.. هذا عن القراءات وأئمتها الأوائل..

أما الفقه وما أدراك ما الفقه؟ ففي العراق عاش الإمام الأعظم أبو حنيفة ومدرسته الفقهية العريقة مدرسة الرأي، وإلى جانبه كان سفيان الثوري وأهل الحديث ينشرون علومهم وطريقة أهل الحديث التي ورثها في العراق أيضا أحمد بن حنبل..

ففي العراق نضج الفقه وفيه نضجت القراءات وقبل ذلك النحو إضافة إلى سائر العلوم الإسلامية فهذه هي

البيئة التي استقر فيها إمامنا الطبري رحمه الله، وفيها نشر علومه وفقهه، وفيها دوّن كتبه، وبقي ينشر العلم إلى أن لحق بربه في أرض العراق.. فأعظم بتلك البيئة العلمية!

أما الناحية السياسية والاجتماعية فمعلوم أن هذه الفترة من تاريخ العلوم الإسلامية كانت أكثر الفترات ازدهارا في تاريخ تدوين العلوم، حيث الاستقرار السياسي والدعم السخي الذي كان يلقاه طلاب العلم والعلماء ، فهذه الفترة تعد بحق العصر الذهبي للدولة الإسلامية، ولاشك أن هذه الظروف السياسية والاجتماعية والعلمية كان لها أعظم الأثر في حياة العلماء تلك الأيام ومنهم الإمام الطبري رحمه الله تعالى.

❖ مكانته العلمية

إن الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله من أعظم علماء المسلمين المتقنين للعديد من العلوم كالتفسير والحديث واللغة وعلومها والتاريخ والسير والمغازي، والفقه.

وسنعرف مكانته العلمية من خلال ثناء الأئمة الأعلام عليه، فقد قال معاصره وزميله في طلب العلم الإمام محمد

ابن خزيمة رحمه الله: (ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير) قال ذلك بعد أن طالع تفسيره في سنين من أوله إلى آخره.

وقال محمد بن خزيمة أيضا لرجل رحل إلى بغداد يكتب الحديث عن المشايخ ولم يتفق له سماع من ابن جرير: لو كتبت عنه لكان خيرا لك من كل من كتبت عنه.

فقد كان رحمه الله إماما مجتهدا لا يقلد أحدا، كانت الأئمة تحكم بقوله وترجع إلى رأيه لمعرفته.

وقال الإمام أبو حامد الاسفرائيني الفقيه الشافعي المشهور: (لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا).

قال الخطيب البغدادي عنه: (كان من أكابر أئمة العلماء.. قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات كلها بصيرا بالمعاني، فقيها في الأحكام، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم..عارفا بأيام الناس وأخبارهم).

وهذا قليل من كثير من ثناء العلماء على هذا الإمام العظيم، وكتبه ـ التي سنتعرض لشيء منها فيما بعد إن شاء الله ـ شاهدة بتقدمه وعلو كعبه في العديد من العلوم.

❖ كيف طلب العلم؟

يتساءل كثير من الطلاب في زماننا هذا كيف يبدأ في طلب العلم؟

والجواب عن هذا يمكن لنا أن نتلمسه في حياة الإمام الطبري كواحد من أئمة السلف المتبوعين، وطريق طلبهم للعلم متشابهة، فكيف طلب إمامنا الطبري رحمه الله؟

❖ القرآن أولا:

بدأ حفظ القرآن العظيم وأتمه في صباه، كشأن الكثيرين من سلفنا الصالح، والإمام الطبري رحمه الله كان حافظا متقنا للقرآن الكريم حسن الصوت بالقراءة مع المعرفة التامة بالقراءات على أحسن الصفات، وهذه القصة تبين لنا تقدمه في هذا المجال فعن أبي علي الطوماري قال: كنت أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد إلى

المسجد لصلاة التراويح، فخرج ليلة من ليالي العشر الأواخر من داره واجتاز على مسجده، فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العطش فوقف بباب مسجد محمد ابن جرير ومحمد يقرأ سورة الرحمن فاستمع قراءته طويلا، ثم انصرف فقلت: له يا أستاذ تركت الناس ينتظرونك وجئت تسمع قراءة هذا!

فقال يا أبا علي: دع هذا عنك، ما ظننت أن خلق بشر يحسن يقرأ هذه القراءة!

فهذه شهادة إمام من أعظم أئمة القراءات في تاريخ المسلمين ألا وهو ابن مجاهد حيث يترك تلاميذه ينتظرون ليستمع إلى قراءة ابن جرير رحم الله الجميع.

❖ وبعد القرآن الفقه:

ثم تفقه على مذهب إمام عظيم من الأئمة المتبوعين، فقد كان أولا شافعيا حتى أتقن مذهب الشافعي وصار إماما فيه حيث يقول عن نفسه أنه هو الذي نشر مذهب الإمام الشافعي ﷺ في بغداد، وهذه طريق شرعية مأخوذة من قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فإذا ما تمكّن الإنسان في علوم الشريعة واللغة العربية إلى الدرجة التي يقارب فيها علم الأئمة الأوائل فلا بأس عليه، بل يجب عليه أن يجتهد كما اجتهدوا وأن يؤسس مذهبا كما فعلوا، وهذا ما فعله الإمام الطبري حيث انفرد بمذهب مستقل له أقوال واختيارات، وله أتباع ومقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة.

أما أن يبدأ الطالب للعلم بالاجتهاد ونبذ أقوال الأئمة واتباع ما يتوهمه دليلا كما يحلو لبعض الناس أن يفعل في أيامنا هذه، فهذه طريق منكوسة لا بد أن تنتهي بالفشل الذريع.

❖ تحمله لمشاق تحصيل العلم

قد علمنا أن طالب العلم لا بد أن يمتحن أثناء طلبه للعلم، وقد ضرب علماؤنا وسلفنا الصالح رضوان الله عليهم لنا المثل الأعلى في الصبر على شدائد التحصيل تقربا إلى الله تعالى ولسان حالهم يقول:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى
فما انقادت الآمال إلا لصابر

ومن هؤلاء الأعلام الإمام الطبري رحمه الله حيث يقول: أبطأت عني نفقة والدي واضطررت إلى أن فتقت كمي قميصي فبعتهما..

يبيع أكمام قميصه ليجد لقمة القوت التي تعينه على طلب العلم! فيا لها من شدة ويا له من صبر..أين طلاب العلم في يومنا من هذا!

ولا يقولن قائل ماذا تساوي الأكمام؟! فقد كانت ذات قيمة في زمانهم، وعلى كل لم تكن قيمة عالية إنما يمكن أن يجلب بثمنها بعض القوت الذي يبقي على الحياة.

❖ قصة المحمدين

وهذه قصة أخرى تبين لنا جلَد الإمام الطبري مع جماعة من كبار أهل العلم كانوا رفقته في طلب العلم، وهذه القصة ذكرها العديد من أهل العلم المؤرخين لسيرة الإمام الطبري.

حيث جمعت الرحلة العلمية بين محمد بن جرير ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر وكلهم من الأئمة الأعلام

فأرملوا أي افتقروا تماما حتى نفد كل ما لديهم[1]، ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، حيث حلّ لهم سؤال الناس من شدة الجوع وعدم تيسر أسباب الرزق.

فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، ويا له من موقف شديد على النفس على عالم جليل من كبار العلماء غني في بلده يتعرض لسؤال الناس، موقف الموت أهون منه عند كرام الناس وأشرافهم..

فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، يصلي متقربا إلى الله العلي الكبير الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع وخادم من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا الباب فنزل عن دابته فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صرة

---

(١) ـ وكأن أيديهم ملتصقة بالرمل من شدة الفقر والحاجة.

فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قال أيكم: محمد بن هارون؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون دينارا، ثم قال إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى في المنام خيالا قال: إن المحامد طووا كشحهم جياعا فأنفذ إليكم هذه الصرار، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إلي أمدكم.

❖ همته في طلب العلم

لقد عرف عن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم همة لا تعرف الكلل ولا الملل يبتغون بذلك وجه الله تعالى، لا يثنيهم عن ذلك حر الصيف ولا برد الشتاء، ولا تصرفهم الدنيا بزهرتها وزخارفها عن لذة تحصيل العلم ابتغاء الله تعالى والدار الآخرة.

سَهَرِي لِتَنقيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لي

مِن وَصلِ غانِيَةٍ وَطيبِ عِناقِ

وَأَلَــذُّ مِــن نَقــرِ الفَتــاةِ لِدَفِّــها
نَقــري لِأُلقــي الرَمــلَ عَــن أَوراقــي
وَتَمــايُلي طَرَبــاً لِحَــلِّ عَويــصَةٍ
فــي الــدَرسِ أَشهى مِن مُدامَةِ ساقِ
أَأَبيــتُ سَــهرانَ الــدُجى وَتَبيتُــهُ
نَومــاً وَتَبغــي بَعــدَ ذاكَ لِحــاقي

ومن أولئك الأئمة الأعلام الإمام الطبري، فقد روي عنه أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة.

ولما عقد العزم على تأليف التفسير قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه! فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله، ماتت الهمم!

وقد كان أهل العلم يلتمسون العون من الفتاح القوي

العزيز الذي لا تفنى خزائنه، قال أبو جعفر: استخرت الله، وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني.

وإذا ما أردنا أن نعرف همة ذلك الإمام الجليل فما علينا إلا أن نصغي إلى هذه الحادثة وذلك أن قوما من تلامذة محمد بن جرير حسبوا له منذ بلغ الحلم إلى أن مات ثم قسموا على تلك المدة أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة!

كُلَّ يَومٍ لَكَ اِحتِمالٌ جَديدٌ　　وَمَسيرٌ لِلمَجدِ فيهِ مُقامُ
وَإِذا كانَتِ النُفوسُ كِباراً　　تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ

❖ عبادته وزهده في الدنيا:

من أهم ما يميز العالم الرباني العمل بعلمه، وهذه سنة السلف الصالح والعلماء الثقات الأثبات ومنهم الإمام الطبري رحمه الله، فقد كان عابدا لله تعالى زاهدا في الدنيا، قائما في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم فهو من كبار الصالحين، قد أراد الخليفة المقتدر في بعض الأيام

أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متفقا عليها بين العلماء، فقيل له: لا يقدر على استحضار ذلك إلا محمد بن جرير الطبري، فطلب منه ذلك، فكتب له فاستدعاه الخليفة إليه، وقرب منزلته عنده، وقال له: سل حاجتك، فقال: لا حاجة لي، فقال: لا بد أن تسألني حاجة أو شيئا، فقال: أسأل من أمير المؤمنين أن يتقدم أمره إلى الشرطة حتى يمنعوا السؤّال يوم الجمعة أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع، فأمر الخليفة بذلك.

أنظر إلى هذه الحاجة التي يطلبها ذلك العالم الجليل مكافئة له من خليفة يملك أعظم إمبراطورية وقتها، أن يمنع المتسولين الدخول إلى مقصورة الجامع صيانة لحدود الله وتعظيما لمساجد الله! أما الدنيا فهي عرض قليل زائل لا تستحق أن تكون هدفا لإمام عظيم رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

قد أغناه عن السؤال أنه كان رحمه الله قانعا من هذه الدنيا باليسير ينفق على نفسه من ضيعة صغيرة تركها له أبوه بطبرستان.

كانت قلوبهم متعلقة بالله يعظمون ما عظّم ويحقرون ما حقّر، ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله اكتفوا منها بما يقيم أودهم دون ترف أو توسع.

وقد التمس منه الوزير أن يعمل له كتابا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها، ولم يقبلها فقيل له: تصدق بها، فلم يفعل، وقال: أنتم أولى بأموالكم وأعرف بمن تصَدّقون عليه.

و لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوت منها، فسرقت، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه، كما سبق أن ذكرنا، فقال له بعض أصدقائه تنشّط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، قال: نعم.

فمضى الرجل فرتب له الأمر وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير، ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة، وسأل إسلافه رزق شهر ففعل وأدخل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي فلما كتّبه

أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع، وقال: قد شورطت على شيء فلا آخذ سواه، فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه، وسأله فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون، فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء فيقبله، ويكافئه أضعافا لعظم مروءته.

ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء، فامتنع فعرض عليه ولاية المظالم فأبى، فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست!وطمعوا في قبوله المظالم فأتوه في الصباح الباكر ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم، وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه فانصرفوا من عنده خجلين.

❖ كتبه

تعد كتب الإمام الطبري من أعظم الموسوعات الإسلامية، فهمته في طلب العلم أثمرت للأجيال اللاحقة

علوما واسعة وذلك من العلم النافع الذي يجري للإنسان أجره بعد وفاته، ومن أعظم تلك الكتب:

١ـ كتاب التفسير المسمى: (جامع البيان في تفسير القرآن) عدّ كثير من العلماء الإمام الطبري أبا للتفسير فقد صنف هذا الكتاب جمع فيه أقوال المتقدمين مع تحرير دقيق لاختلافاتهم، مع ذكر رأيه وترجيحاته، وهذا الكتاب يعد بحق من أعظم الموسوعات العلمية، قال الإمام أبو محمد الفرغاني: تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب، كل كتاب يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل.

وقد سبق أن نقلنا قول الإمام أبي حامد الاسفرائيني: (لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا).

وتفسير الإمام الطبري للقرآن من أجل التفاسير لم يؤلف مثله كما ذكر كثير من العلماء منهم النووي والسيوطي وغيرهم، وقد جمع فيه بين الرواية والدراية ولم يشاركه في ذلك أحد قبله، ولا بعده، وسنأتي إن شاء الله بمزيد من

التوضيح لمنهج الإمام الطبري في تفسيره في وقت لاحق.

٢ ـ **تاريخ الأمم والملوك** كما صنف تاريخه الحافل المسمى تاريخ الأمم والملوك ، ويحتوي هذا الكتاب أخبار الدنيا منذ خلق آدم عليه السلام إلى أيام الطبري، وهو يروي تلك الأخبار بأسانيدها، وقد اختصر هذا الكتاب وحذف أسانيده جماعة من العلماء، وتاريخ الطبري يعد أيضا موسوعة علمية جمع فيه كثيرا من أخبار العالم، وقد اعتمد على هذا التاريخ كل من ألف في التاريخ بعده، والكتاب مطبوع ومتداول.

٣ ـ **كتاب تهذيب الآثار** وهو من أحسن كتبه التي ذكرها العلماء وأعظمها، وقد ابتدأه بما أسنده سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه مما صح عنده سنده، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه على طريقة علماء الحديث، ثم يذكر فقه ذلك الحديث، واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين والمتجاوزين للحدود العلمية، فتم منه مسند العشرة المبشرين بالجنة، وأهل البيت الكرام، وبعض مسند ابن عباس رضي الله عنهما، ولكنه

لم يكتمل حيث مات قبل تمامه ، قال بعض العلماء: لو تم هذا الكتاب لوصل إلى مئة مجلد.

٤ـ له كتاب **لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام** وهو مذهبه الذي اختاره وقواه واحتج له واستقر عليه ، وهذا الكتاب يقع في ثلاثة وثمانين كتابا ، على التصنيف الفقهي ، والإمام الطبري كما أسلفنا صاحب مذهب مستقل وله أتباع يعرفون بالجريرية ، ويبدو أن هذا المذهب قد انقرض كما انقرض كثير من مذاهب السلف كالأوزاعي والليث وأبي ثور وسفيان الثوري وغيرهم.

٥ـ ومن كتبه أيضا كتاب **تاريخ الرجال** من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم .

٦ ـ له كتاب في علم القراءات.

٧ـ كتاب اختلاف العلماء ، يذكر في هذا الكتاب أسباب اختلاف الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين.

٨ـ له كتاب **التبصير** وهو كتاب في العقيدة ، وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين.

٩ـ كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة ، وهو كتاب

نفيس موضوعه الأخلاق والسلوك ابتدأه بآداب النفوس، وأقوال الصالحين ولم يتمه.

١٠ـ كتاب شرح السنة وهو لطيف بين فيه مذهبه واعتقاده.

١١ـ وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، كما أن له بعض ما يسمى عند العلماء بالأجزاء الحديثية، وهي الكتب المتخصصة بموضوع حديث واحد وجمع طرقه، وله أيضا كتاب في مناسك الحج، وكتب أخرى لم نذكرها خشية الإطالة.

❖ محنته مع الحنابلة

تعد المذاهب الأربعة خلاصة مذاهب الصحابة والتابعين فقد أسسها أربعة من كبار علماء أمة سيدنا محمد ﷺ وقد تلقت الأمة المحمدية هذه المذاهب بالقبول والاحترام والكثرة الكاثرة من علماء الأمة ينتسبون إلى هذه المذاهب، ومن انتسب إلى مذهب من هذه المذاهب المحترمة كان يكن كل احترام وتبجيل وتقدير لباقي المذاهب.

ولكن مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعصب له في

التاريخ بعض العوام والجهلة كما تعصب لغيره من المذاهب أيضا أناس من هذا القبيل..

اتّباع المذهب والتفقه عليه شيء والتعصب له بانتقاص باقي المذاهب شيء آخر، ولا شك أن أهل العلم الفضلاء من أتباع الإمام أحمد يمقتون التعصب وأهله، ولقد ابتلي الإمام ابن جرير ببعض متعصبة الحنابلة، حيث تكلم بما لا يروق لهم في الدرس فآذوه بالضرب والشتم، بل ازداد أذاهم له ونسبوه ظلما وزورا إلى مخالفة مذهب أهل السنة والجماعة.

فمما نسبوا إليه زورا وبهتانا أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء وأنه لا يوجب غسلهما وقد اشتهر عنه هذا، بسبب الإشاعات المغرضة، ولكنه كلام باطل مخالف لما ثبت في كتبه، وحاولوا تشويه صورته أمام الناس بأشد من هذا، فهناك من الجهلة من رماه بالإلحاد وحاشاه من ذلك كله، بل كان أحد أئمة الإسلام علما وعملا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان بعض العلماء يقول عن أولئك الرعاع: والله لو سئل هؤلاء عن معنى

الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه.

ووصل الأمر بأولئك الرعاع والأوباش إلى منع طلاب العلم من الوصول إليه والأخذ عنه والتتلمذ على يديه.

وذكر بعض العلماء أن لذلك التعصب سببا وهو أن الطبري جمع كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل فقيل له في ذلك، فقال: لم يكن فقهيا وإنما كان محدثا، وهذا رأي لم ينفرد به الطبري بل كان شائعا في الساحة العلمية وهذا لا ينقص من قدر الإمام أحمد ﷺ فاشتد ذلك على متعصبة الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد فشغبوا عليه واتهموه وآذوه.

والحق أن هذه سنة متبعة فقد تعرض كثير من أهل العلم للامتحان والابتلاء فصبروا على ذلك الأذى، وكل ذي نعمة محسود والعلم من أعظم النعم.

حَسَدوا الفَتى إِذ لَم يَنالوا سَعيهُ
فَالقَومُ أَعداءٌ لَهُ وَخُصومُ
كَضَرائِرِ الحَسناءِ قُلنَ لِوَجهِها
حَسداً وَبَغياً إِنَّهُ لَدَميمُ

❖ **من مواعظه**

وها نحن نذكر شيئا من مواعظه التي نقلها أهل العلم عن بعض كتبه: (القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه، قال: إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والقعود له رصدا بطرق ربه المستقيمة، صادا له عنها كما قال لربه عز ذكره إذ جعله من المنظرين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] طمعا منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فحق على كل ذي حجى[١] أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخييبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره).

---

(١) ـ الحجى هو العقل والرأي .

❖ فقهه وفطانته

وهذه قصة ذكرها أهل العلم تدل على فقهه وفطانته حيث وقع خلاف بين رجل وزوجته فقال لها: أنت طالق ثلاثا لا تخاطبيني بشيء إلا قلت لك مثله، فقالت في الحال: أنت طالق ثلاثا؛ فاحتار ذلك الرجل فإن لم يجبها طلقت، وإن أجابها بما قالت طلقت أيضا، فما العمل؟! فذهب إلى الإمام محمد بن جرير فقال له: أقم معها بعد أن تقول لها: أنت طالق ثلاثا إن طلقتك! فاستحسن العلماء هذا الجواب من ابن جرير رحمه الله تعالى.

❖ طريقته في التفسير

إن تفسير الطبري من أجل التفاسير وأعظمها قدرا عند العلماء كما سبق أن ذكرنا طرفا من كلام أهل العلم وثنائهم عليه، فهذا الكتاب يعد من أهم المراجع عند المفسرين والعلماء الذين يهتمون بالمنهج النقلي في تفسير القرآن، أو ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وهو في الوقت ذاته لا يهمل الاستنباط والبحث الحر الدقيق وفق المنهج العقلي المعروف

بالتفسير بالرأي فهو كتاب جامع بين العقل والنقل، كما يعد مرجعا مهما في النواحي اللغوية والشواهد الشعرية على تفسير القرآن الكريم، وها نحن نذكر طريقته في تفسير القرآن العظيم ومنهجه في ذلك ونصف تفسيره وصفا عاما.

يقع تفسير الإمام الطبري في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير وهو من الموسوعات التفسيرية الضخمة الجامعة لكثير من جوانب تفسير القرآن العظيم؛ فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين، وقد قال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري، ويمكن تلخيص منهج الإمام الطبري في تفسيره بالآتي:

١- **يبتدئ الإمام الطبري تفسيره بقوله: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا** ثم يذكر الآية التي يريد تفسيرها، ثم يفسر الآية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة والتابعين وأئمة العلماء، وإن كان في تفسير الآية قولان فأكثر فإنه يذكر تلك الأقوال مع حجة كل قول ودليله.

٢- **لا يكتفي بمجرد الرواية**، بل يتعرض لتوجيه الأقوال،

ويرجح بعضها على بعض، كما يتعرض للجوانب اللغوية والإعرابية إن اقتضت الحاجة ذلك، مع ذكر الشواهد الشعرية من كلام فصحاء العرب.

٣- يستنبط الأحكام التي يمكن استنباطها من كل آية يمر عليها حسب فهمه ومقدرته.

٤- يعيب على الذين يعتمدون على مجرد الرأي مستقلين بعقولهم دون الرجوع إلى صحيح الأثر.

٥- التزم الإمام الطبري رحمه الله ذكر الروايات بأسانيدها في كتابه ولكنه لم يلتزم نقد تلك الأسانيد معتمدا على ما قاله أهل الحديث سابقا: (من أسندك فقد أحالك) ومع ذلك نجد هذا الإمام العظيم، يقف موقف الناقد البصير من بعض الأسانيد، فيعدل من يستحق التعديل ويجرح من يستحق الجرح وفق منهج المحدثين.

٦- يعتمد ابن جرير رحمه الله على إجماع علماء المسلمين ولا يخرقه ولا يتجاوزه شأنه في ذلك شأن سائر الأئمة الثقات الأثبات والعلماء الكبار، فالإجماع دليل قوي لا يتجاوزه إلا من في قلبه مرض، والطعن في إجماع

المسلمين أو التشكيك فيه شأن أهل الأهواء والبدع.

٧- يذكر ابن جرير رحمه الله الاحتمالات اللغوية الواردة، ودليل كل احتمال من لغة العرب ثم يختار أليق تلك الاحتمالات ولاسيما في تفسير الآيات التي تتحدث عن الذات العلية وصفات الخالق ﷻ.(١)

٨ - أما بالنسبة للقراءات فهو يذكر القراءات الواردة على منهج علماء القراءات، وقد أُخذ عليه التوسع في نقد القراءات حتى أجحف في هذا الجانب فردّ بعض القراءات المتواترة، وهذا لا يجوز وقد رد عليه العلماء سلفا وخلفا، قلت: ولعل عذره رحمه الله في هذا أن تواتر تلك القراءات التي ردها لم يبلغه، وعلى كل حال فالعصمة للأنبياء وكل من العلماء يؤخذ من قوله ويرد إلا سيدنا المعصوم محمداً ﷺ.

٩ - موقفه من الإسرائيليات: هناك طائفة من الأخبار في تفسير القرآن العظيم تسمى الإسرائيليات وهي الروايات التي أخذها علماء التفسير عن الذين أسلموا من بني إسرائيل

---

(١) - قد تعرضت لهذه القضية بتوسع في كتابي معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عند الحديث على قانون التأويل.

من أحبار اليهود والنصارى ، وهذا الجانب قد تساهل فيه كثير من المفسرين على خطورته ، ولعل عذر الطبري في هذا تأثره بمنهج المؤرخين والإخباريين خاصة وأنا نعلم أنه من كبار علماء التاريخ .

١٠ـ إعراضه عما لا فائدة فيه: توسع كثير من المفسرين فيما لا فائدة منه في الدنيا ولا في الآخرة ، وذلك كلون كلب أهل الكهف وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ ومائدة بني إسرائيل وما هي أصناف الطعام التي كانت عليها؟ والثمن البخس الذي بيع به يوسف ، وأشياء من هذا القبيل مما لم يثبت في كتاب ولا سنة ، فهي علم لا ينفع وجهل لا يضر ، وقد كان ابن جرير يعرض عن الخوض في مثل هذه التفاسير العجيبة .

والحق أن شخصية ابن جرير رحمه الله المتكاملة علميا ونفَسَه الاجتهادي جعل تفسيره لوحة متكاملة الألوان وبستانا يحمل أصناف الثمار اليانعة ، وروضا مربعا تتألق فيه أصناف الأزهار والرياحين فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ونفعنا بتفسيره وسائر علومه .

❖ نموذج من تفسير الإمام الطبري:

وها نحن نذكر نموذجا من تفسير الإمام الطبري ملخصا حتى يتضح لنا منهجه بشكل عملي بعد أن عرفناه نظريًّا:

١- في البداية قال رحمه الله تعالى: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

٢ - بعد ذلك ذكر سبب نزول السورة فقال: ذكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب رب العزة؛ فأنزل الله هذا السورة جوابا لهم.

وقال بعضهم: بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه فقالوا له: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فأنزلت جوابا لهم.

٣ - ثم ذكر من قال بالقول الأول ومن قال بالقول الثاني من أئمة الصحابة والتابعين، وساق الأسانيد إلى أصحاب الأقوال، ونلاحظ أنه لم يتعرض لنقد الأسانيد.

٤ - ثم قال بعد ذكر الروايات الواردة عن سبب النزول: فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا قل يا محمد لهؤلاء السائليك عن نسب ربك وصفته ومن خلقه؟ الرب

الذي سألتموني عنه: هو الله الذي له عبادة كل شيء لا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح لشيء سواه.

٥ ـ ثم ذكر اختلاف أهل العربية والنحو وبسط حجة كل فريق ثم رجح أحد الأقوال بقوله: وهذا القول هو أشبه بمذاهب العربية.

٦ـ وبعد ذلك ذكر القراءات الواردة في قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ هل تقرأ بالتنوين أم بتركه؟ بما في ذلك المتواترة والشاذة ووجّهها اعتمادا على بعض الشواهد الشعرية واختار القراءة الموافقة لإجماع القراء المحتج بقولهم، **ولما كانت القراءتان صحيحتين في قوله: ﴿كُفُوًا﴾** أجاز القراءة بكل منهما وقال: واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿كُفُوًا﴾ فقرأ ذلك عامة قراء البصرة كفُوًا بضم الكاف والفاء، وقرأه بعض قراء الكوفة بتسكين الفاء وهمزها كفئا، **وقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان ولغتان مشهورتان فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.**[١]

---

(١) ـ سبق أن أشرت إلى أن منهج الإمام الطبري في نقد القراءات عليه بعض المؤاخذات وقد توسعت في بيان ذلك والرد عليه في كتابي معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، فليراجعه من أراد الاستزادة.

٧ ـ ثم ذكر الاختلاف في معنى الصمد فقال: واختلف أهل التأويل في معنى الصمد فقال بعضهم: هو الذي ليس بأجوف ولا يأكل الطعام ولا يشرب.

وقال آخرون: الذي لم يخرج منه شيء ولم يلد ولم يولد.

وقال آخرون: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث ولا شيء يولد إلا سيموت فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث ولا يموت.

وقال آخرون: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده.

ونقل عن ابن عباس ﷺ أن معنى الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له وقال آخرون: بل هو الباقي الذي لا يفنى.

وقيل: الصمد الدائم.

وذكر الإمام الطبري إسناد كل قول إلى قائله ومن بين ذلك حديثا عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﷺ مشكوكا في رفعه إلى النبي ﷺ حيث قال عبد الله بن بريدة: لا أعلمه إلا قد رفعه قال: الصمد الذي لا جوف له.[1]

ثم نقل إسناد كل قول إلى قائله وبعد ذلك ذكر اختياره وسبب ذلك الاختيار فقال: **الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه، الذي لا أحد فوقه وكذلك تسمي أشرافها** ومنه قول الشاعر:

أَلا بكّر الناعي بِخيرِ بَني أسد

بعمرو بن مسعودٍ وَبالسيّدِ الصّمَد

وقال الزبرقان:

.... فَلا رَهينَةَ إِلّا سَيدٌ صَمَدُ

ثم قال الطبري: فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى

---

(١) ـ هذا الحديث غير صحيح ولا يجوز تفسير القرآن بمثله وسنلاحظ بعد قليل أن الإمام الطبري أعرض عنه وفسر الصمد بما صح عن ابن عباس وما أيدته شواهد العربية من أنه السيد الذي يصمد إليه ولا أحد فوقه.

بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه، ولو كان حديث ابن بريدة عن أبيه صحيحا كان أولى الأقوال بالصحة؛ لأن رسول الله ﷺ أعلم بما عنى الله جل ثناؤه وبما أنزل عليه.

نلاحظ هنا من منهج الطبري رحمه الله أنه لا يلجأ إلى الرأي والتفسير العقلي في حال ثبوت شيء عن رسول الله ﷺ، ولكن لما كان الحديث مشكوكا في صحته أبدى اجتهاده مؤيدا بكلام فصحاء العرب، ومع ذلك فلو صح الحديث لم يستبدل به غيره وهذا منهج سائر الأئمة الأعلام رضي الله عنهم أجمعين؛ حيث كان يقول قائلهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

وعلى هذا المنوال أتم تفسير سورة الإخلاص وهو منهجه العام الذي سار عليه في سائر تفسيره رحمه الله.

❖ وفاته:

توفي في أواخر شهر شوال في مدينة بغداد، ولما كان وقت صلاة الظهر من اليوم الذي توفي في مسائه ابن جرير

طلب ماء ليجدد وضوءه، فقيل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر، فأبى أن يأخذ برخصة جمع الصلاة للمرض التي قال بها بعض الفقهاء وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها.

وفي المساء بدأ يحتضر، وحضر وقت موته جماعة من العلماء منهم أبو بكر بن كامل، فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا؟ فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلاما هذا معناه.

وأكثر من التشهد، وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا، رحمه الله رحمة واسعة.

ودفن يوم صباح اليوم التالي في داره في المكان المعروف برحبة يعقوب، سنة عشر وثلاثمائة للهجرة.

ولم يغير شيبه وكان السواد في شعر رأسه ولحيته كثيرا وله من العمر ست وثمانون سنة.

❖ جنازته:

لم يؤذن به أحد وذلك خوفا من متعصبة الحنابلة الذين امتحن فيهم، ودفن في بيته خشية أولئك الرعاع الذين ظلموه، ومع أن الناس لم يُعلموا بوفاته اجتمع عليه من لا يحصيهم عددا إلا الله وصلي على قبره عدة شهور ليلا ونهارا، وهذه علامة تعارف المسلمون على أنها من علائم القبول عند الله حين يتكاثر الناس للصلاة على العالم والصالح.

❖ رثاؤه

كانت وفاة الإمام الطبري رحمه الله حدثا مؤثرا في الأوساط العلمية فموت العالم ثلمة في الدين، فكيف إذا كان العالم هو ابن جرير العالم الموسوعة الذي ملأت الأرض علومه؟!

أجل رحل ابن جرير فكان الخطب عظيما على أهل العلم وطلابه؛ لذلك رثاه خلق من أهل الدين والأدب والعلم، منهم ابن الأعرابي رحمه الله حيث قال في مرثية له

طويلة منها:

حدث مفظع وخطب جليل ... دق عن مثله اصطبار الصبور
قام ناعي العلوم أجمع لما ... قام ناعي محمد بن جرير
فهوت أنجم لها زاهرات ... مؤذنات رسومها بالدثور
وتغشى ضياءها النير الإشرا ... ق ثوب الدجنة الديجور[1]
وغدا روضها الأنيق هشيما ... ثم عادت سهولها كالوعور
يا أبا جعفر مضيت حميدا ... غير وانٍ في الجد والتشمير[2]
بين أجر على اجتهادك موفو ... ر وسعي إلى التقى مشكور
مستحقا به الخلود لدى جنة ... عدن في غبطة وسرور

وكذلك رثاه أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد رحمه الله في مرثية مؤثرة منها قوله:

لن تستطيع لأمر الله تعقيبا
فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا[3]

---

(١) ـ الديجور شدة الظلام، وليلة ديجور أي مظلمة، وكذا الدجنة.

(٢) ـ غير وان أي غير مقصر.

(٣) ـ الحُوبُ: الغَمُّ والهَمُّ والبَلاءُ، والحَوْبُ: الـجَهْدُ والشِّدَّة، والحُوبُ: الهَلاكِ والحُوبُ: الحُزنُ، وقيل: الوَحْشة.

وافـزع إلـى كنـف التـسليم وارض

بما قضى المهيمن مكروها ومحبوبا

إن العـزاء إذا عـزّته جائحـة

ذلـت عـريكته فانقـاد مجنوبـا[١]

فـإن قرنـت إليـه العـزم أيـده

حتـى يعـود لديـه الحـزن مغلوبـا

فـارم الأَسـى بالأُسـى يطفـي مواقعها

جمرا خلال ضلوع الصدر مشبوبا[٢]

أودى أبـو جعفـر والعلـم فاصـطحبا

أعظـم بـذا صـاحبا إذ ذاك مـصحوبا

إن المنيـة لـم تتـلف بـه رجـلا

بـل أتلفـت علمـا للـدين منصـوبا

---

(٤) ـ الجائحة: المصيبة ، المجنوب هو المريض بذات الجنب وهنا كناية عن الضعف .

(٥) ـ الأَسى الحزن والأُسى جمع أسوة .

أهـدى الـردى للثرى إذ نـال مهجتـه
نجما على من يعادي الحق مصبوبا
كـان الزمـان بـه تـصفو مـشاربه
فـالآن أصـبح بالتكـدير مقطوبـا
كـلا وأيامـه الغـر التـي جعلـت
للعلـم نـورا وللتقـوى محاريبـا
لا يـولج اللغـو والعـوراء مـسمعه
ولا يقـارف مـا يغـشيه تأنيبـا[1]
إن قـال قـاد زمـام الـصدق منطقـه
أو آثر الـصمت أولـى الـنفس تهييبا
تجلـو مواعظـه ريـن القلـوب كمـا
يجلـو ضـياء سـنا الـصبح الغياهيبا
سـيان ظـاهره البـادي وباطنـه
فـلا تـراه علـى العـلات مجـدوبا

---

(١) ـ العوراء كل قبيح من القول والفعل .

لا يـــأمن العجــز والتقــصير مادحـــه

ولا يخـــاف علــى الإطنـــاب تكـــذيبا

ودت بقـــاع بـــلاد الله لــــو جعلـــت

قبـــرا لـــه فحباهـــا جـــسمه طيبـــا

كانـــــت حياتـــك للـــدنيا وســـاكنها

نـــورا فأصـــبح عنهـــا النـــور محجوبـــا

لو تعلم الأرض ما وارت لقد خشعت

أقطـــــارها لـــك إجـــلالا وترحيبـــا

وكنـــت جـــامع أخـــلاق مطهـــرة

مهـــذبا مـــن قـــراف الجهـــل تهـــذيبا

إن ينـــدبوك فقـــد ثلّـــت عروشـــهم

وأصـــبح العلـــم مرثيـــا ومنـــدوبا[1]

ومـــن أعاجيـــب مـــا جـــاء الزمـــان بـــه

وقـــد يبـــين لنـــا الدهـــر الأعاجيبـــا

---

(٢) ـ ثل عرش فلان: كناية عن سقوط الدولة وزوال الملك .

أن قد طوتك غموض الأرض في لحف

وكنـت تمـلأ منهـا الـسهل واللوبـا[1]

** ** **

(٣) ـ اللوب جمع لابة وهي الأرض الصخرية ،

الخاتمة

وهكذا قد انتهت حياة علم من أعلام الأئمة المحمدية عاش لله تعالى، وأفنى عمره المبارك ما بين تفان في تعلم العلم الشريف جاب الأرض من الشرق إلى الغرب طالبا له محتسبا لوجه الله ﷻ وما بين تعليم لما قد تعلم.

وقد ترك لنا ثروة عظيمة استفادت منها الأجيال السابقة وستستفيد منها الأجيال اللاحقة ما شاء الله أن تستفيد، وكل ذلك في صحيفة ذلك العالم الحبر وصحيفة من وجّهه لطلب العلم وأمده في حياته العلمية بالمال وما يحتاج إليه، فهذا من العلم الذي ينتفع به، ولا ينقطع أجر من دوّنه.

وهذا الصنف من الناس كما أنه لا ينقطع أجره بموته كذاك لا يموت ذكره عند الناس، وفي كل يوم يترحم الناس عليه في مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فَفُــز بِعِلــمٍ وَلا تَطلُــب بِــهِ بَــدَلاً

فَالنــاسُ مَــوتى وَأَهْــلُ العِلــمِ أَحيــاءُ

وهذا درس عملي متجدد لكل طالب علم يقرأ هذا الكلام؛ فإن أفضل ما تبذل فيه الأوقات وتنفق فيه الأموال العلم الشرعي ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويكفينا في ذلك شرفا هذا الحديث:

عن زر بن حبيش رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل من مراد إلى رسول الله ﷺ يقال له صفوان بن عسال وهو في المسجد فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ قال: ابتغاء العلم قال: فإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع.[1]

❊❊ ❊❊ ❊❊

---

(١) ـ أخرجه الإمام الحاكم في مستدركه، ج١/ص١٨٠.

قائمة المصادر والمراجع

١ـ أبجد العلوم.

٢ـ الفهرست.

٣ـ كشف الظنون.

٤ـ معرفة القراء الكبار.

٥ ـ طبقات المفسرين للسيوطي.

٦ـ طبقات المفسرين للداودي.

٧ـ سير أعلام النبلاء.

٨ـ طبقات الشافعية.

٩ ـ الكامل.

١٠ـ البداية والنهاية.

١١ـ معجم البلدان.

١٢ـ شذرات الذهب.

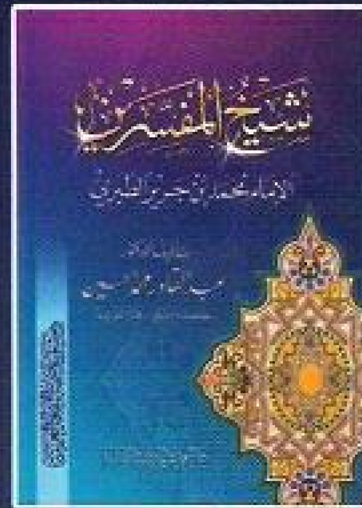
١٣ـ وفيات الأعيان.

١٤ـ تاريخ بغداد.

١٥ ـ التفسير والمفسرون.

الفهـــرس

❊❊ ❊❊ ❊❊



٨١٠٠٢٢